البخاري السَّباعي
جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)

مقومات شخصية الإمام عبد الحميد ابن باديس وأثرها في فكره التحرري

ملخص:

تعتبر شخصية الإمام عبد الحميد ابن باديس من أبرز الشخصيات الوطنية الجزائرية التي أثرت وساهمت في بناء الفكر التحرري، لهذا نحاول من خلال دراستنا الوقوف عند بعض الوقفات مع شخصية العلامة عبد الحميد ابن باديس، وأثرها في تكوينه التحرري ومقاومته للمستعمر بكل ما أوتي من قوة العلم والإيمان والإرادة والتحدي

الكلمات المفتاحية: مقومات شخصية ، عبد الحميد ابن باديس، الفكر التحريري

تمهيد :

قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي واصفاً الإمام عبد الحميد ابن باديس: « باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشىء مجلة الشهاب مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي الجيلين، كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله تعالى على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مباديها، علم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد ابن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم رحمه الله ورضي عنه...»[1]

لقد كانت هذه الكلمات الموجزة للعلامة محمد البشير الإبراهيمي، معرفاً بصاحبه، ومنوها بفضله، وهو أحقّ من يعرف بابن باديس وأولى به، فلا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه.

وإن كنّا لا نجرأ للتعريف بمثل هؤلاء الأعلام، خوف التقصير في حقهم أو التقليل من شأنهم ، حياء منهم وإجلالا ؛ فإن ذلك كلّه لا يمنعنا من التذكير بحقوقهم على من بعدهم ،و التعرّف على مقومات شخصياتهم ؛ فهم قدوتنا و رموز نهضتنا الفكرية و يقظتنا الروحية ، و باعث استقلالنا و حريتنا.

و ليكن حديثنا اليوم عن مقوّمات شخصية العلاّمة عبد الحميد ابن باديس رحمه الله ،و قد ارتأيت أن أسجلها في هذه المحطات السريعة :

عصر ابن باديس :

لقد ولد ابن باديس بعد أكثر من نصف قرن من احتلال فرنسا للجزائر ، حيث عمدت فرنسا إلى إلحاق الجزائر بها ، و عيَّنت عليها حاكما عامًا فرنسيًا يرجع بالنظر إلى وزارة الداخلية ، و عملت جهدها لفَرنَسَة البلاد ، عن طريق محاولة فَرْنَسَة الجزائريين ، و ذلك بالقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية ، بفرنسة ألسنة أبنائها أو تجهيلهم ، و بتنصيرهم أو سلخهم عن دينهم ، و قد عمدت إلى الاستعانة بأعداد كبيرة من المهاجرين الأجانب من اللصوص و المجرمين في أوربا و المشردين و المرتزقة ؛ فاستوطنوا الجزائر و استحوذوا على أراضي أهلها.

1

لقد قامت فرنســـا في حربها على الجزائر على جبهتين متوازيتين ، جبهة التقتيل و التشـــريد و الاســتيلاء على الأرض ، و جبهة التجهيل و التغريب و التنصــير ، فالأولى اســتهدفت المادة و الأخرى استهدفت الروح ؛ إلا أن الجبهة الثانية كانت أطول مدّة و أعسر على الاستعمار من الجبهة الأولى.

لقد قامت فرنســـا منذ اليوم الأول بمحاربة اللغة العربية و الدين الإســـلامي بغلق الكتاتيب القائمة ومنع انتشـــار المدارس الأهلية ، و فرض اللغة الفرنســـية وحدها في التعليم ، و هدم المســـاجد و تحويل بعضها إل كنائس كما فعلت مع الجامع الكبير بمدينة الجزائر[1].

إنّه لمن الواضــح جدًّا أن جرائم الاســتعمار زرعت في ابن باديس شــخصــية المقاوم ، و اختار أسلوبا جديدا في المقاومة ، بعد أن شخّص الداء فعرف الدواء ، وأدرك ببصيرته أنه لا يمكن التخلص من الاســتعمار إلا بإصــلاح النُّخب التي تقود الأمة إلى تحرُّرها ، و لا يمكن ذلك إلا بإصــلاح تعليمها ، فاتَّجه إلى التعليم لإصلاحه[2].

لقد شـهد عصـر ابن باديس تطورات ذات أبعاد متعددة :سياسية و اجتماعية و اقتصـادية وفكرية؛ فالعصر الذي ولد فيه ابن باديس هو عصر ولادة عمالقة الفكر و الأدب و السياسة ، و الإنسان ابن بيئته ، بها يتأثر و فيها يؤثر ؛ فقد ولد ابن باديس في سنة 1889 ، و هي السنة نفسها التي ولدها فيها العلامة محمد البشـــير الإبراهيمي ، رفيق ابن باديس في الدعوة و الإصـــلاح الديني و ولد فيها عباس محمود العقاد الأديب و الفيلســـوف و الصـــحفي المصـــري ،الذي كان له الأثر البالغ في الأدب العربي الحديث، وفيها ولد عميد الأدب العربي طه حُسَـــين ، و ولد فيها آرنولد جوزيف توينبي (1889 – 1975) و هو مؤرخ بريطاني مشـهور طُبع كتابه الموجز عن الحضـارات (دراسـة التاريخ) الذي يقع في 12 مجلداً ما بين (1934 – 1961 م).

---

(1) استعاد الجزائريون هذا المسجد بعد الاستقلال مباشرة ،و ألقى فيه العلامة محمد البشير ا لإبراهيمي أول خطبة بديعة ، حضرها وفود من مختلف البلاد الاسلامية بعد 132 سنة ،بتاريخ : 05 جمادى الثانية 1382 هـ الموافق 1962/11/02 ، ينظر نص الخطبة :محمد البشير الإبراهيمي ،في قلب المعركة ، شركة دار الأمة ، الجزائر ،ط1 ،1994 ، ص 241 ، و هي مجموعة من مقالات العلامةخلال معركة التخرير (1954 - 1964) ، قدّم لها الأستاذ أبو القاسم سعد الله.

(2) ينظر : مقال لابن باديس في مجلة الشهاب ، أكتوبر 1934 ، بعنوان : صلاح التعليم أساس الإصلاح ، آثار إمام عبد الحميد بن باديس ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، قسنطينة ،ط1 ، 1985 ، ج 4 / ص 74 – 78.

و قد قسَّم توينبي التاريخ العالمي إلى 26 حضارة ، وتقصّى نشوءها و انحدارها و سقوطها و أعلن أن بقاء الحضارة الغربية متوقف على إعادة بعث الروح النَّصرانية. وفي هذه الفترة ولد رشيد رضا (1865 -1935) أحد رجال الإصلاح و الفكر الإسلامي في مصر و العالم العربي ، ومن الكتَّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير .

وقد تأثر بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده عن طريق جريدة العروة الوثقى ، ثم أصدر رشيد رضا جريدة المنار[1] (سنة 1898 م) فكرَّس حياته لمناصرة الإسلام و المسلمين.

لا شكّ أن ابن باديس قد تأثر برجال الفكر و الإصلاح في عصره ، بل تأثر بجميع المجدّدين والمصلحين في التاريخ الإسلامي ، ويدلُّ على ذلك خططه في الإصلاح ، ودفاعه عن المصلحين[2] والتراجم التي سجّلها لبعضهم بقلمه في صحفه و مجلاته ، فمن ذلك ما كتبه عن محمد رشيد رضا واصفًا له بأنّه حجّة الإسلام و مجتهد العصر ، و أنه نسيج وحده ، و اعتبر وفاته رزء الإسلام ... إلى غير ذلك مما سطّره في أربع حلقات من سبتمبر إلى ديسمبر من سنة 1935 م في مجلة الشهاب[3].

ويصف في مقال آخر الشيخ طاهر الجزائري بعنوان (شيخي) بأنه الذي ربّى عقله ، و حبَّب إليه هذا الاتجاه الفكري ، و أن حياته كانت دوراً من أدوار الإصلاح، بل هي تاريخ الأمة في حقبة من حياتها [4]، وعندما يتحدّث عن عبد العزيز الثعالبي يذكر نبوغه و عبقريته ، وثباته في سبيل إصلاح المجتمع من جميع نواحيه ، و لا تفوته الفرصة ليذكر بأصوله الجزائرية ومقاومة أسرته ، وأنّ جدّه شاهد بعض معارك الجزائر في رد الحملة الفرنسية ،و أنّه " أصيب برصاص العدو بقيت آثاره في صدره فكان يكشف عن ذلك الصدر لعبد العزيز في صغره "[5].

عائلة ابن باديس :

[1] و هي الجريدة اشتهر باسمها تفسيره العظيم : تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار ، و هي أصلها مجالس دروس الإمام محمد عبده ،و لكن بأسلوب محمد رشيد رضا ، إلا أنه لم يتيسر له إتمامه ، و هو مطبوع يقع في 12 مجلدا ، و تعتبر مدرسة المنار رائدة الإصلاح الديني و قد تاثر أغلب رجال الإصلاح في العالم العرب و الإسلامي.

[2] ينظر :دفاع ابن باديس عما فعله مصطفى كمال أتاتورك في تركيا ،و نعيه للشعب التركي زعيمهم ، و التماس الأعذار له في إلغائه لمجله الأحكام العدلية ، و عدم التزام حكمه بالشريعة، و عذره في نظر ابن باديس أنه سعى في تحرير بلده ،و إصلاح أنظمتها ، بعيدا عن الجمود و البدع و الخرافات الطرقية و كهنوت رجال الدين . ينظر :آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس، ج3 /ص 122 – 125 ، و هو المقال الذي نشر في مجلة الشهاب : ج7 ، م 14 ، رمضان 1357 هـ/نوفمبر 1939 م.

[3] ينظر : آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس ، ج3 / ص 82 – 96.

[4] ينظر : المرجع نفسه ، ج3/ص 113.

[5] ينظر : المرجع نفسه ، ج3/ص 118.

ولد ابن باديس من أسرة عريقة في النسب ، مشهورة في العلم و السلطان و الأدب ، فقد كان جدّه الأولّ " بلكين بن زيري " الصنهاجي ، مؤسس الدولة الزيرية ، و كان المعز لدين الله بن باديس قد عمل على انفصال المغرب الإسلامي عن الخلافة الفاطمية ، و حارب الشيعة الرافضة وحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي : سنة 443 هـ و قد حكمت هذه الدولة ما يقرب من 180 عاما (362 هـ إلى ـ 543 هـ) ، و قد تولّى والده عدة مناصب سياسية عليا (عضوا بالمجلس الجزائري الأعلى و المجلس العمالي) . كما تولّ عمّه حميدة بن باديس نائباً عن مدينة قسنطينة في فترة حياته ، و كتب عريضة بأنواع المظالم والاضطهادات التي أصبح يعانيها الشعب الجزائري في أواخر ق 19 م من الإدارة الاستعمارية و المستوطين الذين استحوذوا على أراضيهم .

و اشتهر في أسرته في الجانب العلمي :الشيخ أبو العباس حميدة قاضي قسنطينة ، والشيخ المكي ابن باديس الذي تولّ القضاء أيضا[1].

نشأته العلمية :

التغذية الأولى : لم يلتحق ابن باديس بالمدارس الفرنسية كعادة العائلات الكبيرة ، و إنَّما فضَّل أبوه أن يربّى تربية إسلامية خالصة[2]، فكانت البداية في الكتاتيب على يد الشيخ محمد المدَّاسي ، فهو أولّ معلم له [3]، فحفظ القرآن الكريم وعمره 13 سنة ، ثم أرسله أبوه إلى الشيخ أبي حمدان لونيسي ، وهو من علماء قسنطينة ، وقد كان رجلاً صوفياً زاهداً ورعاً مبغضاً للاستعمار ، فلقّنه مبادئ علوم اللغة العربية و الدين الإسلامي[4] ، وقد كان له الأثر البالغ في تعليمه و تنمية فكره ومداركه بعد ذلك ، وكان ابن باديس كثيرا ما يذكره ، ويذكر فضله عليه ، ووصيته له بوجوب طلب العلم لا للوظيف و للرغيف[5].

في جامع الزيتونة :

[1] ينظر : د/ تركي رابح ، الشخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة ، موفم للنشر ،2003 ، ص 27 – 29.
[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 30.
[3] ينظر : د/ تركي رابح ، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ،ط3 ، 1981 ، ص 164.
[4] ينظر : المرجع نفسه ، ص 162 – 164.
[5] ينظر : المرجع نفسه ، ص 164 ، نقلا عن محمد صالح رمضان ،"نشأة ابن باديس"، مجلة "إفريقيا الشمالية"ص 43.

بعد أن أنهى دراسته الأولية على يد شيخه لونيسي ، سافر إلى تونس سنة 1908 م ليستكمل دراسته الأولية ؛ و يُتوِّجها بعد أربع سنوات بشهادة العالمية أو التطويع كما كانت تسمى، ثم مكث بجامع الزيتونة يدرس الطلبة حسب عادة الدارسين في الجامع الأخضر[1] ، ومن الأساتذة الذين أخذ عنهم و تأثَّر بهم : محمد النخلي القيرواني ، و الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور و الشيخ محمد الخضر بن الحسين الجزائري الأصل (تولى مشيخة الأزهر) و منهم : الشيخ الصادق النيفر[2].

رحلته للحج :

لما عاد ابن باديس إلى قسنطينة سنة 1913 م باشر إلقاء الدروس من كتاب الشِّفا للقاضي عياض بالجامع الأخضر إلاّ أن فرنسا منعته من التدريس[3]، فقرر أن يذهب في رحلة إلى الحج ، و في الطريق مرّ بمصر و اطّلع على أساليب التدريس بها ، كما نال إجازة بعض علمائها مثل الشيخ بخيت[4] وأتيح له أيضا وهو في الحجاز أخذ العلم عن بعض علمائها مثل الشيخ محمد حسين الهندي ، الذي أشار عليه بضرورة الرجوع إلى وطنه والرباط فيه من أجل الإسلام والعربية والقومية ، فكان يقول بعدها : نحن لا نهاجر ، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن[5].

و ممن تعرّف عليهم في الحجاز رفيق دربه في الجهاد العلمي و الإصلاح الديني وخليفته من بعده، الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، فكانا يتسامران الليالي ذوات العدد في تشخيص داء الأمة و وضع الخطط لعلاجها ، و في طريق العودة زار بلادا عربية فزار سوريا و لبنان و مصر ، و تعرف على علمائها، و أخذ عنهم و أخذوا عنه[6].

الصحبة الصالحة :

[1] ينظر : المرجع نفسه ، ص 163.
[2] ينظر : المرجع نفسه ، ص 162 – 165.
[3] ينظر : د/ تركي رابح ، الشخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة ، المرجع السابق ص 40.
[4] ينظر : د/ تركي رابح ، المرجع نفسه ، ص 42.
[5] ينظر : المرجع نفسه ، ص 41.
[6] المرجع نفسه ، ص 43.

ومن مقوّمات شخصية ابن باديس ، و أهم أسباب نجاح دعوته ، أنه كان يستند إلى كوكبة من العلماء الأفذاذ ، وجنود الخفاء من التلامذة و الأصحاب ، فقد هيّأ الله له من حمل دعوته ، و نشرها بإخلاص و تفان منقطع النظير ، من أقرانه و تلامذته الذين تربوا على يديه مباشرة أو عن طريق الصحف التي كان يصدرها ، و المدارس التي أقامها .

فمن أقرانه عمالقة الفكر و الأدب و الإصلاح كالعلامة محمد البشير الإبراهيمي ، و الشيخ الطيب العقبي ، و الشيخ العربي التبسي ، و الشيخ محمد خير الدين ، و الشيخ إبراهيم بيوض ، و من تلامذته الأفذاذ : مبارك الميلي ، الفضيل الورتلاني ، و أحمد بوشمال و عبد اللطيف سلطاني ، و عبد القادر الياجوري و عبد الرحمن شيبان وغيرهم..

الثبات و الصبر في المحن و الشدائد :

لقد أثمرت هذه العوامل مجتمعة شخصية فذَّة ، جهاداً لا ينقطع و عملاً لا يَكلّ ، و ثباتا على المبادئ والتزاماً بالخطط و البرامج . لقد تعرض الإمام ابن باديس في جهاده العلمي المبارك إلى محن كثيرة ، ومواقف محرجة ، ومضايقات ، بل محاولات الإغتيال ، كما حدث له مع أتباع ابن عليوة الذي ضايقته مقالة ابن باديس في : (رسالة جواب سؤال عن سوء عن مقال) ، حيث بيّن فيها ابن باديس سوء أدب ابن عليوة في مخاطبته للحضرة النبوية ، فدسّ إليه من يغتاله ، لكن الله سلّم ، فانقلبت المحنة إلى منحة و تعاطف الأمة[1].

وموقف آخر يظهر فيه صدق الشيخ و إيمانه الكامل بصحة دعوته ، ما فعله مع **م. ميرانت** مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة بالجزائر ، حيث استدعاه هذا الأخير ، و ساومه على دعوته بأن يقضي عن أبيه جميع ديونه و ينقذ عائلة ابن باديس من الإفلاس مقابل أن يقدم ابن باديس استقالته من جمعية العلماء ، فكتب له في اليوم الموالي رسالة جاء فيها :

" أقتل أسيرك يا ميرانت ، أمّا أنا فمانع جاري ، اقتل يا ميرانت مصطفى ابن باديس، و اقتل معه عبد الحميد ابن باديس ، و اقض على كل أسرة ابن باديس ، إن منحك الله هذه القدرة ، و لكنك لن تصل أبدا إلى قتل جمعية العلماء بيدي ؛ لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد ابن باديس و إنّما

[1] ينظر : القصة الكاملة لقضية السطو على الإمام ابن باديس في كتاب للشيخ أحمد حماني ، صراع بين السنة و البدعة ، دار البعث ، قسنطينة ، ط1 ، 1984.

هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة . وما أنا فيها إلا واحد أتصرف باسم الأمة كلها ، و محال أن أتصرف تصرفاً أو أقف موقفا يكون فيه قتل الجمعية على يدي ، أقول هذا و حسبي الله و نعم الوكيل."[1]

و بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية طالبت السلطات الفرنسية من ابن باديس التوقيع على رسالة تأييد لفرنسا باسم جمعية العلماء ،فرفض ذلك ، ففرضت عليه الإقامة الجبرية إلى أن توفاه الله.

لقد كانت هذه بعض الوقفات مع شخصية العلامة عبد الحميد ابن باديس، وأثرها في تكوينه التحرري، ومقاومته للمستعمر بكل ما أوتي من قوة العلم والإيمان والإرادة والتحدي، فيحملنا كلّ ذلك على تقديم العزاء لأنفسنا كلّما ذكرناه ، أو حلّت بنا ذكراه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

[1] ينظر : محمد الطاهر فضلاء ، دعائم النهضة الوطنية الجزائرية ، دار البعث ، ط1 ، 1984 ، ص 104.